اسم المصدر: الوطن السعودية

التاريـــخ: 25-12-2009 رقم العـدد: 3374 رقم الصفحة: 10 مسلسـل: 68 رقم القصاصة: 1

الرأي

التغيير وسنة التدافع

الإصلاحات التي يقودها الآن خادم الحرمين الشريفين، الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، في كثير من مؤسساتنا الاجتماعية العامة منها والخاصة، هي نتاج أفكار ورؤى صالحة، دافعت وتدافعت حتى وصلت لمستوى التطبيق على أرض الواقع

عبدالرحمن الوابلي

كاتب سعودي

alwabli@alwatan.com.sa

اسم المصدر: الوطن السعودية

التاريـــخ: 25-12-2009 رقم العـدد: 3374 رقم الصفحة: 10 مسلسـل: 68 رقم القصاصة: 2

منذ أن خلق الله الإنسان على الأرض، وبدأ يعيش فيها على شكل تجمعات بشرية والتدافع قائم بينها وبين بعض، وبين أفراد وفئات كل مجتمع على حدة. إذاً فالتدافع بين المجتمعات وبين أفراد وفئات كل مجتمع مع بعض، سنة إلهية مطلوبة لتقدم وتطور المجتمعات البشرية ودرء الفساد عنها. قال تعالى «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض». والتدافع ليس شرطاً بأن يكون تدافع سنان، وإنما في الأغلب هو تدافع منطق وبيان. وهذا يحدث بين مكونات المجتمعات الطبيعية وتصبح جزءا من تكوين بنيتها الثقافية والنفسية وعليه السلوكية والتنظيمية.

إذاً فمن سنن الله في خلقه لرقي وتقدم المجتمعات؛ شرط وجود التدافع المحمود والمطلوب بين أفراد المجتمع ومكوناته، والذي يدل على حيويته ونضجه وتهيئه للتقدم والتطور. إذاً فالتدافع هو شرط من شروط حيوية وحياة المجتمع وسبيل درء الفساد عنه وسعيه للتقدم بتوازن وأمان. والتدافع المحمود في المجتمعات يقوده عقلاؤها ومتعلموها ومثقفوها ونخبها الاجتماعية، والذين بدورهم يمثلون شرائح كبيرة ومهمة وفاعلة فيها، وبنفس الوقت، لا تغفل حماية الشرائح المهمشة والضعيفة فيها وحفظ ورعاية حقوقها.

وعملية التدافع في المجتمع، تبدأ أولاً، بطرح أفكار ورؤى جديدة داخله، كحلول لأزمات تحدثها تغيرات جديدة طارئة أو متوقعة، فتناقش بين أفراد وفئات المجتمع. يوافق عليها ويدعمها من يرى فيها حلا لمشاكل يعايشها أو قد لا يعايشها، ويرفضها من يعتقد بأنها ستخل بموازين القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الآنية لغير صالحه، أو هكذا يعتقد. ففي المجتمعات التي دخلت التاريخ من عصور وأزمان وأخذت تواكبه وتحركه، لا يحركها، استفادت من خبراتها وخبرات المجتمعات القريبة منها والبعيدة عنها، زمانياً ومكانياً، بوعيها بأن التغيير سنة الأحياء والجمود طبع الأموات، وأن الأفكار والرؤى الجديدة هي بداية التغيير وكبحها ومحاولة القضاء عليها في مهدها، بداية التدمير. ولذلك أوجدت برلمانات ومجالس شعبية وشورية، تستلم الأفكار والرؤى والطروحات الجديدة التي يتداولها نخب المجتمع، وتدرسها وتناقشها وتمحصها، فتأخذ منها ما يمكن أن يكون حلولا لمشاكل أحدثتها تغيرات جديدة أو قد تحدثها، ويمكن أن تصمد على أرض الواقع؛ فتصيغ منها أنظمة وقوانين ومشاريع عامة. فترفعها بدورها للحكومات لتنفذها على أرض الواقع، وتحميها وتسهر على رعايتها وصيانتها.

أما المجتمعات الأقل نصيباً في خبرتها وفهمها لسنة الحياة وطبيعة سيرورة التاريخ، وقدرتها على أخذ العبر والحكم من المجتمعات القريبة منها والبعيدة عنها زمانياً ومكانياً، فتقف حجر عثرة أمام أي أفكار ورؤى وطروحات جديدة تطرح لديها. ثم تتجمع هذه الأفكار والرؤى والطروحات الجديدة، ويتراكم عليها أخرى وأخرى، ويختلط الغث منها بالسمين، فتربك المجتمع وتفقده الثقة بنفسه وتوازنه. وينتقل من أزمة إنسانية واقتصادية لأعقد منها، خاصة عندما تطرأ عليه تغيرات جديدة أكثر سرعة وإلحاحاً من السابقات، فلا يستطيع التعامل والتفاعل معها، حيث إن ما قبلها وما قبل قبلها مازال عالقاً بلا حل؛ حيث مازال يلوك ويعجن ويؤجل حلول مشاكله القديمة، فيبدأ باللعب خارج الوقت الضائع، الذي لن تفيد معه أية حلول. ويصبح أي حل يتخذه في زمن الوقت الضائع كارثياً له وعليه، ولو كان من الحلول المطلوبة. حيث هي طبيعة الحلول إذا تأخرت أكثر من اللازم قد تضر أكثر من أن تفيد. فالحلول المناسبة مثلها مثل الطعام المناسب، لها وقت مناسب. أي مهما كان الطعام مغذياً وصحياً ونظيفا، إذا ترك مكشوفاً ولم يتم أكله في وقته، تسمم ومات من يأكله.

إذاً فالأفكار والرؤى الجديدة تتدفق سريعة في ظل التغيرات السريعة في المجتمع، ويتجمع غثها وسمينها وتغدو كالأمطار والسيول الجارفة، إذا لم تجد أمامها سدودا وقنوات تصريف، فهي تجرف من يقف أمامها ومن لم يقف أمامها، وتصبح مدمرة أكثر منها معمرة. وهذا معنى فساد الأرض الذي حذرت منه الآية الكريمة.

إذاً فعملية التدافع تمشي جنبا إلى جنب مع التغير والتطور الذي يطرأ على المجتمعات سواء بإرادتها أو بدون إرادتها، فالمجتمعات الجامدة، البعيدة عن الحراك والتطور، هي مجتمعات شبه ميتة، وعليه لا يحدث فيها تدافع، ولذلك فهي تعيش خارج التاريخ وليس لها نصيب في الحاضر، ناهيك عن المستقبل. أما المجتمعات التي عاشت فترة طويلة في مرحلة الجمود، وعليه خارج التاريخ، ويطرأ عليها تغير اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي مفاجئ، ليس لها فيه يد أو فكرة، ويبدأ فيها بوادر التدافع الطبيعي كاستجابة طبيعية للتغيرات الجديدة الحادثة، فيصيبها الرعب والخوف منه وتنظر له بعين الشك والريبة، وتعتبره نقمة (نقمة بحق دخولها التاريخ، التي لم تعتده) لا نعمة بحقه. وعلى هذا الأساس، ترميه وتجيره لمؤامرات خارجية عليها، يجب قمعها والتخلص من شرورها، والقدح فيمن يقودون إرهاصات التدافع لديها وتسميتهم بأبشع الأسماء وأقبح الصفات والنعوت، وقد تصل للمطالبة بالتخلص منهم جسدياً.

لذلك فليس بالمستغرب أن المجتمعات المتقدمة والمتطورة، تحتفي بمفكريها ومثقفيها ومبدعيها ومتعلميها ومخترعيها ونخبها الاقتصادية والإدارية الفاعلة وتهيئ لهم جميع الظروف وتذلل أمامهم كل العقبات من أجل أن يطرحوا أفكارا ورؤى وطروحات جديدة وخلاقة، تعينها على مجابهة ما يعترضها من صعوبات وأزمات جراء التغيرات الطارئة والمتسارعة التي تطرأ عليها من وقت لآخر. وتصبح الفكرة الجديدة، بالنسبة لها، فكرة مشروع حل جديد، لمشكلة حاصلة أو من الممكن حدوثها. وعلى هذا الأساس تسبح بأمن وسلام مع التيار لا ضده، ودوماً تصل لشواطئ الأمان بأقل الخسائر والأثمان. كما أنه ليس بالمستغرب كذلك، أن العقول مازالت تتدفق وبكرم وسخاء، من المجتمعات النامية للمجتمعات المتطورة. فالفكر والإبداع لا وطن له، إلا الوطن الذي يحتفي به، فيقدره ويحتضنه. فحكمة الله من خلقه الإنسان هي إعمار الأرض، وصيانة حياة وحقوق وكرامة وحرية الإنسان هي تهيئته للقيام بمهمته التي أوكله الله للقيام بها والتعبد له بها. ولا يتم إعمار الأرض إلا بشروط، سنها الله تعالى لخلقه، ومنها بعد صيانة كرامة الإنسان، تهيئة سبل التدافع السلمي له. فالتدافع سر صلاح الأرض وعمارها، وعدمه، فسادها ودمارها. فالإصلاح هو نتاج فكرة صالحة، ولا يمكن معرفة صلاحية فكرة من عدمها إلا بعدم الشك فيها واستقبالها وتمحيصها واختبارها، ثم طرحها على أرض الواقع إن هي أثبتت قدرتها على علاج مشاكل ذلك الواقع. فتأجيل الإصلاح هو تأجيل للصلاح، وعليه تعجيل للفساد.

عليه، فإن الإصلاحات التي يقودها الآن خادم الحرمين الشريفين، الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، في كثير من مؤسساتنا الاجتماعية العامة منها والخاصة، هي نتاج أفكار ورؤى صالحة، دافعت وتدافعت حتى وصلت لمستوى التطبيق على أرض الواقع. وهذه الإصلاحات الكريمة، وما سيأتي بعدها، هي طوق النجاة، بعد الله، لمجتمعنا من الفساد، وطريقه المعبد للإعمار. وهي كذلك استجابة طبيعية لتغيرات طارئة ومتسارعة تحل بمجتمعنا والعالم من حولنا، وهي التي ستقودنا بإذن الله لشواطئ الأمان بأمن واطمئنان وخاصة عندما تم تسخير أضخم ميزانية في تاريخنا الوطني، لبناء الإنسان والبنية التحتية للبلد.